

## عازفة البيانو الفريده يلينك

تندفع عازفة البيانو إريكا كوهوت كالعاصفة الدوارة إلى الشقة التي تتقاسمها مع أمها . تحب الأم أن تطلق على إريكا " الزوبعة الصغيرة " ، لأن الابنة تتحرك أحيانا بسرعة متناهية ، محاولةً أن تهرب من أمها . إريكا تقترب من نهاية الثلاثين . بسهولة يمكن اعتبار الأم ، وبالنظر إلى عمرها ، جدة إريكا . بعد سنوات عديدة قاسية من الزواج رأت إريكا نور العالم . على الفور سلم الأب الدفة إلى ابنته وانصرف .

ظهرت الابنة على مسرح الحياة ، والأب غادره . الضرورة علمت إريكا أن تتحرك بسرعة . كحفنة من ورق الشجر الخريفي تمرق من باب الشقة ، محاولةً الوصول إلى غرفتها دون أن يراها أحد . ولكن الأم تقف هناك بقامتها الشامخة ، وتضبط إريكا . تضبطها وتحقق معها ، ثم تصدر الحكم بالإعدام . محكمة تفتيش وفرقة إعدام في شخص واحد ، تعترف به الدولة والعائلة بالإجماع كأم . تتقصى الأم أسباب عودة إريكا الآن إلى المنزل ، متأخرة إلى هذا الحد . التلميذ الأخير انصرف إلى بيته منذ ثلاث ساعات بعد أن أشبعته إريكا تهكماً .

أتعتقدين أنني لن أعرف أين كنت ، يا إريكا؟

الطفلة ملزمة بتقديم إجابة لأمها دون أن تسألها . لكن الأم لا تصدق طفلتها ، لأنها تكذب .

ستنتظر وتعد: واحد، اثنان، ثلاثة .

عند " اثنين " تبادر الابنة بتقديم إجابة تحيد عن الحقيقة . عندئذ تُتزع الشنطة المكتظة بالنوتات الموسيقية، فتحملق الإجابةُ المرة على كل الأسئلة في وجه الأم . أربعة مجلدات من سوناتات بيتهوفن تنقسم بامتعاض الحيز الضيق داخل الشنطة مع فستان جديد، من الواضح أنها اشترته لتوها . على الفور تشرع الأم في الهجوم على الفستان . في المحل، قبل قليل، بدا الفستان الذي اخترقته الدبابيس جذابا، ملونا، طيعا، أما الآن فإنه يرقد مثل خرقة رخوة تخترقها نظرات الأم .

نقود الفستان كانت مخصصة لصندوق التوفير! لقد استهلكت قبل الأوان . كان بإمكان المرء أن يستعرض هذا الفستان أمام عينيه في كل حين في هيئة مبلغ مقيد في دفتر توفير " صندوق البناء " التابع لمجموعة صناديق التوفير النمساوية؛ إذا تجشم المرء مشقة الطريق إلى صندوق الغسيل حيث يطل دفتر التوفير من خلف كومة من المناشف الكتانية . أما اليوم فقد قام الدفتر برحلة، وتمت عملية سحب، والنتيجة يراها المرء أمام عينيه :

على إريكا أن ترتدي هذا الفستان في كل مرة، يريد فيها المرء أن يعرف مصير النقود الجميلة . الأم تصرخ: بددتِ بسفاهة نقودا كنا سنحتاج إليها فيما بعد! كان بإمكاننا فيما بعد أن نشترى شقة جديدة، ولكن لأنك لا تستطيعين الانتظار، فكل ما تمتلكينه الآن هو خرقة ستخرج قريبا من عالم الموضة .

الأم تريد كل شيء فيما بعد . لا تريد شيئا على الفور . غير أنها تريد الابنة دائما، وتريد دائما أن تعرف أين تتصل بها عند الضرورة، إذا حامت أخطار ذبحة قلبية حول " ماما " . تريد الأم أن تقتصد في الوقت، حتى تستطيع الاستمتاع في ما بعد . ولكن إريكا تشتري فستانا! فستانا يبلى أسرع مما تختفي لحسة مايونيز على سندوتش سمك: هذا الفستان سيكون العام المقبل، بل الشهر المقبل، خارج الموضة . الموضة لا تصنع نقودا أبدا .

تدخران لامتلاك شقة كبيرة مشتركة . الشقة التي تستأجرانها وتقبعان فيها الآن قديمة ومتداعية، لا يستطيع المرء سوى التخلص منها . ستختاران معا قبل الانتقال إلى الشقة الجديدة الخزانة التي سيتم تركيبها، بل وحتى موقع الجدران الفاصلة، إذ أن النظام الذي ستصمم وفقه الشقة نظام حديث تماما . كل شيء سيتم تنفيذه بدقة وفق رغباتهما الشخصية .

يلينيك : عازفة البيانو

من يدفع، يُملئ شروطه. الأم، التي تتقاضى معاشاً ضئيلاً، تحدد ما تدفعه إريكا. في هذه الشقة الجديدة تماماً، والمبنية بوسائل المستقبل، ستحصل كل واحدة على مملكتها الخاصة، إريكا هنا، الأم هناك، وكلا المملكتين منفصلتان. هناك غرفة معيشة مشتركة، وفيها تتلاقيان؛ إذا أردتا. وحسب قوانين الطبيعة فإن الأم وابنتها تريدان دوماً، لأنهما كل واحد لا يتجزأ. حتى في حظيرة الخنازير الآيلة للسقوط هذه، تمتلك إريكا مملكتها الخاصة، حيث تسرح وتمرح، وتُفَضَّى أمورها. مملكة مؤقتة فحسب، فللأم الحق في الدخول عليها في أي لحظة. ليس لباب حجرة إريكا قفل، وليس لدى الأطفال أسرار.

المكان الذي تعيش فيه إريكا يتكون من غرفة صغيرة تستطيع أن تفعل داخل جدرانها ما يحلو لها. لن يعوقها أحد، لأن هذه الغرفة ملكها وحدها. أما مملكة الأم فهي تشمل كل ما عدا ذلك في الشقة، لأن ربة البيت، التي تهتم بأمر كل شيء، تعمل في كل مكان بالشقة، بينما تستمتع إريكا بشمار العمل المنزلي الذي تنجزه أمها.

لم يكن على إريكا أن تتعب نفسها أبداً في الأعمال المنزلية، لأن تلك الأعمال ووسائل التنظيف تدمر يدي عازفة البيانو. ما يقلق الأم أحياناً، في إحدى الاستراحات القليلة التي تسمح بها كي تلتقط أنفاسها، هي الملكية التي تتجلى في أشكال عدة، فالمرء لا يستطيع أن يعرف أين بالضبط مكان كل شيء. إلى أين ذهبت هذه الحيازة المتحركة مرة أخرى؟ في أي الغرف تندفع وحدها أو مع آخر؟ إريكا الزئبقية، ذلك الشيء اللزج، تتمايل في هذه اللحظة في مكان ما وتمارس هراءها. ومع ذلك، تجد الابنة في كل يوم طريقها إلى المكان الذي تنتمي إليه، وتصل في الموعد المحدد بالثانية: إلى البيت.

ينتاب القلق الأم في كثير من الأحيان، لأن كل مالك يتعلم أول ما يتعلم، وهو يتعلم ذلك بعد تجارب مؤلمة، أن الثقة شيء جميل، لكن الاحتياط واجب. مشكلة الأم الرئيسة تتركز في رغبتها في الاحتفاظ بملكيتها قدر الإمكان في مكان ثابت حتى لا تهرب منها. جهاز التلفزيون يؤدي هذا الغرض، ذلك الجهاز الذي يُصنَع صوراً جميلة وموسيقى جميلة، ثم يغلفها ويوصلها إلى المنازل. بسببه تتواجد إريكا في البيت تواجداً شبه دائم، وإذا غادرته مرة، فإن المرء يعرف بالضبط أين تحوم. أحياناً تذهب إريكا في المساء إلى حفلة موسيقية، لكن ذلك قل إلى حد الندرة.

إما أنها تجلس أمام البيانو، وهي تضرب بعنف على مفاتيحه كي تستخرج موهبتها المطمورة

الميتة؛ أو تحوم في المكان كروح شريرة أثناء إحدى البروفات مع تلاميذها. هناك يمكن الاتصال بها في حالات الطوارئ. أو قد تجلس تتسلى، وتستمتع بوقتها، تعزف الموسيقى وتخلق معها في السماء، أو تعزف موسيقى الحجرة مع الزملاء الذين يشاركونها الاهتمامات نفسها. هناك يمكن الاتصال بها أيضا. تكافح إريكا كي تفك الرباط الوثيق الذي يربطها بأمتها، ولا تني تروجها ألا تتصل بها، لكن الأم لا تلتزم بذلك، لأنها هي وحدها التي تحدد القواعد. الأم تحدد أيضا طريقة استفسارها عن ابتها، والنتيجة هي أن عدد الناس الذين يريدون رؤية ابتها أو الحديث معها في تناقص مستمر. مهنة إريكا هي عشقتها: الموسيقى، هذه السلطة السماوية. تملأ الموسيقى كل وقت إريكا. لا مكان لوقت آخر لديها. لا شيء يثير البهجة مثل حفل موسيقي راق، يعزف فيه أمهر الموسيقيين.

عندما تجلس إريكا مرة في الشهر في أحد المقاهي، فإن الأم تعرف في أي مقهى، وتستطيع الاتصال بها هناك. إنها تستغل هذا الحق بكل حرية، وبذلك نسجت لنفسها شبكة من العادات والتأكيدات والضمانات.

يتحجر الزمن حول إريكا ببطء كالجبس. لكنه ينهار على الفور إذا ضربت الأم بقبضة يدها فوقه. في مثل هذه الحالات تجلس إريكا هناك هدفا لسخرية الآخرين، والبقايا المتحجرة من ياقة الزمن تحيط بعنقها الرقيق، وتجذب نفسها مجبرة على الاعتراف: لا بد أن أعود الآن إلى البيت. إلى البيت. عندما يقابل شخص إريكا في الخارج، يجدها غالبا في طريقها إلى البيت. تعلن الأم أن إريكا تعجبها هكذا كما هي. لن تصبح بالتأكيد شيئا أفضل. كان بإمكانها - وهو ما توفره إمكانياتها بسهولة لو كانت وثقت بي وحدي، بأمتها - أن تصبح عازفة بيانو ماهرة تتعدى شهرتها حدود بلدها. غير أن إريكا كانت في بعض الأحيان - رغما عن إرادة الأم - عرضة للتأثيرات الخارجية، لحب مُتخيل يكنه رجل، ومعه تشتت ذهنها عن الدراسة، مظاهر خارجية مثل أدوات التجميل والملابس تجعل الرؤوس القبيحة تلتفت إليها؛ وهكذا انتهى مستقبلها المهني قبل أن يبدأ فعلا.

ولكن المرء يمتلك بالتأكيد شيئا أكيدا: وظيفة مدرس بيانو في كونسرفتوار مدينة فيينا. حتى في سنوات التعلم والتدريب لم تجذب نفسها مجبرة على الذهاب إلى إحدى تلك المدارس الموسيقية الصغيرة النائبة، حيث يلفظ كثيرون أنفاسهم الشابة، بظهور محدودبة وقامة مغبرة - سرب عابر،

فقط هذا الزهو بالذات . الزهو الملعون . زهو إريكا جعل حياة الأم جحيما ، وزرع الشوك في عينيها . هذا الزهو هو الشيء الوحيد الذي على إريكا أن تتعلم التخلي عنه شيئا فشيئا . اليوم أفضل من الغد ، لأنه يمسي مع الشيخوخة الواقفة على عتبة الباب عبئا ثقيلا . والشيخوخة في حد ذاتها عبء كاف . إريكا ! هل كان عباقرة تاريخ الموسيقى مصابين بأفة الزهو ؟ كلا ، لم يكونوا . الشيء الوحيد الذي على إريكا أن تتخلى عنه هو الزهو . وإذا اقتضت الضرورة فسوف تقوم الأم بإزالة كل التتواتر والبروزات في شخصية إريكا حتى تصبح ملساء لا يعلق بها شيء زائد . وهكذا تحاول ماما اليوم أن تنتزع من أصابع ابنتها المتشنجة الفستان الجديد ، لكن هذه الأصابع متدربة خير تدريب . اتركه ، تصرخ الأم ، أعطيني إياه ! لا بد من معاقبتك على طمعك وشهوة المظاهر عندك . حتى الآن أوقعت الحياة عليك عقوبة التجاهل ، والآن ها هي أمك تعاقبك بالتجاهل أيضا ، رغم أنك تبهرجين وتضعين الألوان على وجهك مثل مهرج . أعطيني الفستان ! تندفع إريكا فجأة تجاه خزانة ملابسها . تلبستها شكوك مظلمة ، تأكدت صحتها من قبل عدة مرات . هناك شيء اختفى اليوم مثلا ، وتحديدا التاير الخريفي الرمادي الغامق . ماذا حدث ؟ في الثانية التي تلاحظ فيها إريكا أن شيئا غير موجود ، فإنها تعرف أيضا من المسؤول عن ذلك . إنه الشخص الوحيد المحتمل . يابنت الذين . . يابنت الذين . . تزار إريكا في وجه السلطة الأعلى منها وهي تتميز غضبا ، ثم تنشب أظافرها في شعر الأم المصبوغ باللون الأشقر الداكن الذي غزاه الشيب عند الجذور .

الكوافير أيضا أسعاره غالية ، ومن الأفضل ألا يذهب المرء إليه . مرة في الشهر تقوم إريكا بصيغ شعر أمها . إريكا تنتف الآن الشعر الذي جمّلته يداها . أخذت تشده والغضب يملكها . الأم تصرخ وتبكي . وعندما توقفت إريكا عن الشد ، وجدت يديها مملوءتين بخصلات الشعر ، فتتطلع إليها صامتة مندهشة . لقد كسرت الكيمياء مقاومة هذا الشعر ، والطبيعة أيضا لم تصنع منه يوما تحفة فنية . لم تعرف إريكا على الفور ماذا تفعل بهذا الشعر . وأخيرا تذهب إلى المطبخ ، وتلقي في صفيحة الزبالة بالخصلات الشقراء الداكنة التي مرت بمحاولات صباغة عديدة فاشلة .

بشعر أقل تقف الأم منتحبة في غرفة المعيشة التي كثيرا ما تقدم فيها إريكا حفلاتها الموسيقية الخاصة ، حيث تكون أفضل الجميع ، لأن أحدا لم يسبق له أن عزف على البيانو في هذه الغرفة

على الإطلاق. ما زالت الأم تمسك بيدها المرتعشة الفستان الجديد. إذا كانت تريد أن تبيعه، فلا بد أن تسرع، لأن زهور الخشخاش هذه، التي تشبه في حجمها رؤوس الكرنب، لن تلبسها المرأة سوى عام واحد، وبعد ذلك لن ترتديها أبدا. تشعر الأم بألم في رأسها حيثما فقدت خصلات الشعر.

ترجع الابنة وهي تبكي من الانفعال. تسب الأم وتصمها بالحقارة والدناءة، وفي الوقت نفسه تأمل بأن تتصالح معها سريعا. بقبلة حنونة. تتمنى الأم قطع يد إريكا، لأنها ضربت ماما، ومنتفت شعرها. يتعالى نحيب إريكا تدريجيا، لأنها تشعر الآن بالندم والأسف من أجل الأم التي تضحي بعظمها وشعرها. تشعر إريكا إثر كل ما تفعله ضد الأم بالأسف، لأنها تحب أمها التي تعرفها منذ نعومة أظافرها.

في النهاية تلتف إريكا - كما هو متوقع - من حدة نبرتها، بينما راحت تنوح وتبكي بمرارة. بسرور، بكل سرور، تستجيب الأم وتلين، فلا يمكن أن تغضب على ابنتها غضبا حقيقيا. سأصنع قهوة لنشربها معا. أثناء تناول القهوة يتزايد شعور إريكا بالتعاطف مع الأم، وتزدرد آخر بقايا غضبها مع قطعة الجاتوه. تفحص الثقوب بين شعر الأم. لكنها لا تدري ماذا تقول، تماما كما لم تدر ما تفعله بخصلات الشعر. مرة أخرى تشرع في سفح دموع قليلة، كنوع من العناية المتأخرة، لأن الأم طاعنة في السن، ولأن حياتها ستنتهي وشيكا. ولأن شبابها، وشباب إريكا أيضا، قد ولى من غير رجعة. وعموما لأن هناك دوما شيئا يمضي، ونادرا ما يعقبه شيء.

تشرح الأم لابنتها الآن، لماذا ينبغي على البنت الجميلة ألا تتبرج. توافق الابنة على ما تقول. هذه الثياب الكثيرة الكثيرة التي تعلقها إريكا في الخزانة، لأي غرض؟ إنها لا ترتديها أبدا. هذه الثياب معلقة بلا فائدة، فقط من أجل زينة الخزانة. لا تستطيع الأم أن تمنع دوما عملية الشراء، ولكن ارتداء الثياب يدخل في حيز سلطتها. الأم تقرر المظهر الذي تخرج به إريكا من البيت. لن تخرجي هكذا من البيت، تقرر الأم، لأنها تخشى أن تخطو إريكا بهذه الثياب منازل غريبة تلتقي فيها برجال غرباء. إريكا نفسها توصلت إلى قرار بعدم ارتداء ملابسها. من واجب الأم مساعدة الأبناء على اتخاذ قرار، حتى لا يتخذوا قرارات خاطئة. عندئذ لا يجد المرء نفسه مجبرا على لعق جراحه وتضميدها، فالمرء أوقف النزيف في بداياته. تفضل الأم أن تجرح إريكا بنفسها، ثم تسهر على شفائها.

يلينيك : عازفة البيانو

يتشعب بهما الحديث ويصل إلى نقطة ترش فيها الأم رذاذا حمضيا على أولئك الذين يجتازون إريكا من اليمين أو اليسار أو على وشك أن يفعلوا. ليس هذا ضروريا، وعلى المرء ألا يسمح لهم بأن يفعلوا ما يريدون! إنك تسمحين لهم! مع أن بإمكانك أن تقومي بدور الكابحة، لكنك ساذجة، يا إريكا! إذا تصرفت المعلمة على نحو حاسم وصارم، فلن تبرز شابة أصغر منها، من فصلها على الأقل، وتصيب نجاحا كعازفة بيانو، وتشتهر شهرة خارجة عن المخطط له، وغير مرغوب فيها. أنت نفسك لم تتمكني من ذلك، لماذا إذن يُسمح لآخرين أن يصلوا بدلا منك، بل وأن يخرجوا من حظيرة البيانو التي ترعينها؟

تتناول إريكا الفستان المسكين وهي ما زالت تنتحب، ثم تضعه على ذراعها، وتعلقه مغمومة صامتة في الخزانة بجانب الملابس الأخرى: بدل، جيبات، معاطف، تايريات. إنها لا ترتدي أبدا أيا منها. على الملابس فقط أن تنتظرها هنا إلى أن تعود في المساء إلى البيت. عندئذ تخرجها، وتضعها أمام جسدها، وتتأملها: إنها ملكها! صحيح أن باستطاعة الأم أن تنتزعها منها، وتبيعها، لكنها لا تستطيع أن ترتديها بنفسها، فبدانة الأم تحول للأسف دون أن تدخل في هذه الملابس الرشيقة.

الثياب ليست على مقاس الأم. إنها تملكها كلها. تملكها. ملك إريكا. لم يخمن الفستان بعد أن وظيفته في الحياة قد انتهت. دون أن يستخدم، سيُبعد إلى الخزانة، ولن يخرج منها أبدا. لا تريد إريكا سوى ملكيته والفرجة عليه. إنها لا تريد حتى ارتدائه على سبيل التجريب، يكفي أن تمسك أمامها بهذه القصيدة من قماش وألوان، وأن تحركها في خفة. وكأن نسمة ربيعية تسري فيها. في البوتيك، قبل قليل، ارتدت إريكا الفستان الذي لن ترتديه بعد الآن. إنها لم تعد تستطيع حتى تذكر تلك الجاذبية العابرة التي انبعثت من الفستان في المحل. كل ما تملكه الآن هو جثة جديدة من الثياب، إلا أنها تملكها على كل حال.

في الليل، عندما ينام كل شيء ولا يبقى ساهرا سوى إريكا، بينما السيدة ماما، هذا الطرف الأليف من الثنائي المشدود إلى بعضه البعض بالرابطة الجسدية الوثيقة، تحلم - في هدوء سماوي - بطرق تعذيب جديدة؛ تفتح إريكا أحيانا، نادرا جدا، باب الصندوق وتمسح على شهود أمنياتها السرية. ليست على قدر كبير من السرية، هذه الأمنيات، إنها تصرخ عاليا بالثمن الذي دفع مقابل اقتنائها، ثم لماذا هذا كله؟

الألوان تصرخ كصوت ثان وثالث في كورال الأصوات . أين يمكن أن ترتدي مثل هذه الأشياء من غير أن تقوم الشرطة بإبعادها عن المكان؟ في المعتاد لا ترتدي إريكا سوى جيبة وبلوفر ، أو ، في الصيف ، بلوزة . أحيانا تفرغ الأم من نومها وتعرف بفطرتها : إنها تتفرج مرة أخرى على ثيابها ، هذه الضفدعة المختالة بنفسها . الأم متأكدة من ذلك ، فأبواب الخزانة لن تصدر صريرا هكذا المتعتها الذاتية .

ما يبعث على البؤس في الموضوع هو أن عمليات شراء الثياب تطيل المهلة إلى غير نهاية ، حتى ينتقلا إلى الشقة الجديدة ، وإريكا ستكون دوما في خطر أن يلتف حول عنقها رباط حب ؛ وفجأة تجد في عشاها قبلة ذكورية موقوتة . غدا ، على الإفطار ، ستلقى إريكا بالتأكيد تحذيرا صارما بسبب رعونتها وطيشها . كان يمكن أن تموت الأم بالأمس من جراء الجروح في رأسها ، من الصدمة . ستحصل إريكا على مهلة للدفع ، عليها أن تعطي المزيد من الدروس الخصوصية .  
لحسن الحظ فإن المجموعة البائسة ينقصها فستان زفاف . لا تتمنى الأم أن تغدو " أم العروسة " .  
تريد أن تبقى أما عادية . إنها تتواضع وتكتفي بهذا الصفة .

لكن اليوم هو اليوم . والآن لا بد أخيرا من النوم ! هكذا تطلب الأم وهي راقدة على فراش الزوجية ، إلا أن إريكا ما زالت تحوم حول المرأة . الأوامر تصيها كالرماح في ظهرها . بسرعة تتحسس مرة أخرى فستانا أنيقا لفترة ما بعد الظهر ، بزهور على حافته . لم تتنفس هذه الزهور يوما هواء طلقا ، كما أنها لا تعرف الماء . اشترت إريكا الفستان ، كما تؤكد ، من أرقى محلات الموضة في وسط المدينة . جودة ستعيش للأبد ، أما المقاس المناسب فهو يتوقف على جسد إريكا . لا تفرطي في الحلوى والمخبوزات ! من أول نظرة للفستان تولدت لدى إريكا رؤية : سألبسه سنوات عديدة ، دون أن يحيد قيد أملة عن مكانه في مركز الموضة . سيحافظ الفستان سنوات طويلة على مكانته في الموضة ! تُنقل هذه الحجة عبثا إلى آذان الأم . لن يصبح الفستان أبدا موضة قديمة . على الأم أن تفحص قلبها بصرامة لتجيب على السؤال التالي : ألم ترتدي يا ماما في شبابك فستانا على هذه الشاكلة؟ الأم تنفي ذلك مبدئيا . لكن إريكا تصل مع ذلك إلى أن شراء الفستان كان عملية مريحة ، لأن الفستان لن يتقادم أبدا ، وسترتدي إريكا الفستان بعد عشرين عاما كما ترتديه اليوم .

الموضة تتغير سريعا . والفستان يظل في مكانه دون أن يرتديه أحد ، ولكن في أفضل حال .



بيد أن أحدا لا يجيء ويطلب رؤيته . أفضل أيامه مرت دون فائدة ، ولن تعود ثانية ، وإذا عادت ، فلن يحدث ذلك قبل عشرين عاما .

بعض التلاميذ يقاومون بكل قوتهم سطوة معلمة البيانو إريكا ، لكن والديهم يجبرونهم على ممارسة الفن ، ولذلك تستطيع الأنسة البروفيسورة كوهوت أن تستخدم معهم ما شاءت من وسائل تعذيب . بيد أن أغلب من يدق على مفاتيح البيانو لديها هم من التلاميذ المطيعين المهتمين بالفن الذي يريدون تعلمه . ليس هذا فحسب ، إنهم يهتمون بهذا الفن أيضا إذا قام آخرون بإنتاجه ، سواء في النادي الموسيقي أو في صالة الحفل . إنهم يقارنون ، يزنون ، يقيسون ، يحصون . أجنب كثر يأتون إلى إريكا ، وفي كل عام يزداد عددهم . فيينا ، مدينة الموسيقى ! الموسيقى التي أثبتت نفسها فقط هي التي تعيش في هذه المدينة وتتوارثها الأجيال . أزرار هذه المدينة تتمزق بسبب كرش الثقافة الأبيض السمين الذي يزداد انتفاخا كل عام ، كأبي جثة لا ينتشلها المرء من المياه .

هذه الخزانة تستوعب الفستان الجديد . فستان آخر ! لا تحب الأم أن ترى إريكا تخرج من المنزل . هذا الفستان لافت جدا للأنظار ، إنه لا يناسب الابنة . الأم تقول إن على الإنسان أن يعرف أين تقع الحدود . لا تفهم إريكا ما تعنيه الأم بذلك . حتى هنا ، ولا خطوة أخرى ، هذا ما تعنيه الأم .

تشرح الأم لإريكا أنها ، إريكا ، ليست واحدة ضمن كثيرات ، بل هي نسيج وحدها . وما تعتقده الأم ، تصدقه الابنة . إريكا تقول الآن إنها " فردية " ، وتعلن أنها لا تخضع لسلطة شيء أو أحد . بصعوبة شديدة تنضوي إريكا تحت لواء شخص آخر . شيء مثل إريكا لا وجود له إلا مرة واحدة ، وهو لا يتكرر . إذا كان هناك شيء فريد متميز ، فإن المرء يطلق عليه " إريكا " . ما يثير اشمئزازها هو التساوي في كل شكل من أشكاله ، أيضا فيما يخص الإصلاح التعليمي الذي لا يأخذ في الحسبان الصفات المتميزة .

لا تسمح إريكا بأن تُجمع مع آخرين ، حتى لو كانوا يشاركونها الاهتمامات والتوجهات نفسها . إنها تبرز على الفور . إنها ببساطة هي . إنها كما هي ، وهو شيء لا تستطيع تغييره . تشمم الأم التأثيرات الغربية حيثما لا تستطيع أن ترى ابتتها . تريد حماية إريكا على الخصوص من رجل يعيد تشكيلها . إذ أن :

إريكا كائن فريد ، لكنه مغمم بالتناقضات . تناقضات إريكا تجبرها أيضا على أن تقاوم بكل

جهدا أن تبتلعها الجماعة. تتميز شخصية إريكا بالانفرادية المتطرفة. إنها تقف أمام جمهرة تلاميذها بمفردها تماما، وحدها ضد الجميع، ووحدها تدير دفعة قارب الفن. التلخيص لا يمكن أن يفني بحقها أبدا. عندما يسألها أحد تلاميذها عن هدفها، فإنها تذكر "الإنسانية"، وهي بهذا المعنى تلخص للتلاميذ فحوى وصية بيتهوفن المعروفة باسم "وصية هيليجنشتات"، مُقحمةً نفسها على المنبر إلى جانب عبقري فن النغمات.

من الاعتبارات الفنية العامة، والاعتبارات الإنسانية الفردية، تستخلص إريكا اللب والجوهر: لا يمكن أن تخضع أبدا لإرادة رجل، بعد أن خضعت كل هذه السنوات الطويلة للأم. تعارض الأم الزواج المتأخر لإريكا، لأن ابنتي لا تستطيع أن تقبل بنظام ما، ولا يمكن أبدا أن تخضع لأحد. هكذا هي. على إريكا ألا تختار شريكا لحياتها لأنها صلبة عنيدة. كما أنها لم تعد شجرة شابة. إذا لم يعد في استطاعة المرء أن يكون لنا، فإن الزواج ينتهي نهاية سيئة. الأفضل لك أن تظلي أنت، تقول الأم لإريكا. لقد صنعت الأم من إريكا في نهاية الأمر ما هي عليه الآن. ألم تتزوجي بعد، يا آنسة إريكا؟ تسأل بائعة الحليب، ويسأل الجزائر. أنت تعرف، لا يعجبني أبدا أحد، تجيب إريكا.

إنها عموما تنحدر من عائلة أفرادها أعمدة تلغراف منتصبة بمفردها في الطبيعة. هم أفراد قلائل. لا يتكاثرون إلا بصعوبة وتقدير، كما يتعاملون في الحياة مع كل شيء بصعوبة وتقدير. إريكا لم تهبط على العالم إلا بعد عشرين سنة من الزواج الذي أفقد والدها عقله، فتم إيداعه مصحة حتى لا يمثل خطرا على العالم.

بصمت نبيل تشتري إريكا ثمن كيلو زبدة. مازالت أمها لديها، ولذلك ليست بحاجة إلى تصيد رجل. ما يكاد عضو جديد في هذه العائلة يشب ويكبر، حتى يُستبعد ويُرفض. تنقطع الاتصالات به، بمجرد أن يُثبت - وكما هو مُتوقع - أنه غير كفء وغير صالح للاستخدام. بشاكوش صغير تتفحص الأم كل عضو من أعضاء العائلة، وتستبعد الواحد إثر الآخر. ترتب وتصنف وتستبعد. تفحص، وتتخلص. بهذه الطريقة لا تنشأ طفيليات تريد على الدوام الحصول على شيء يريد المرء الاحتفاظ به. سنبقى وحدنا، أليس كذلك يا إريكا، لا نحتاج إلى أحد.

الوقت يمضي، ونحن نمضي فيه. تحت ناقوس زجاجي تعيشان محبوبتين معا، إريكا وفوقها طبقات الحماية الرقيقة، وأمها. الناقوس لن يرتفع إلا إذا أمسك شخص من الخارج بقمة الناقوس

يلينيك : عازفة البيانو

وسجبه لأعلى . إريكا حشرة في حجر كهربان ، لا زمان لها ولا عمر . ليس لإريكا تاريخ ، ولا حكايات . لقد فقدت هذه الحشرة القدرة على الدبيب والزحف منذ أمد طويل . إريكا تحيا في شرنقة الخلود . هذا الخلود تتقاسمه ببهجة مع من تحبهم من فناني النغمات ، لكنها لن تستطيع أن تتنافس معهم في الشعبية على الإطلاق . تنتزع إريكا مكانا صغيرا بالقرب من عظماء الموسيقى . إنه مكان لم تنتزعه إلا بعد كفاح مرير واجتهاد عظيم ، لأن فيينا كلها تريد أن تقيم هنا ولو كوخا صغيرا .

تحدد إريكا موقعها ، ثم تشرع في الحفر لإرساء الأساس . بالدراسة والعزف الخلاق استحققت إريكا هذا المكان أيما استحقاق ! كما أن المحاكاة الإبداعية هي أيضا شكل من أشكال الإبداع . العازف الخلاق يضيف دائما توابله الخاصة أثناء العزف ، ويضفي عليه من روحه ، ومن دمائه قلبه . للعازف ، أيضا ، هدفه المتواضع : العزف الجيد . ولكن لا بد أن يخضع لمشيئة مبدع العمل الموسيقي ، تقول إريكا . طواعية تعترف بأن ذلك يمثل مشكلة بالنسبة لها . لأنها لا ولن تستطيع أن تخضع لأحد .

ولكن هدفا مشتركا يجمع بين إريكا وكل العازفين : أن تكون أفضل من الآخرين !

في الترام تنوء إريكا من جراء ثقل الآلات الموسيقية التي تتأرجح أمام جسدها وخلفه ، ويزيدها ثقلا الشنطة المكتظة بالنوتات الموسيقية . فراشة علقوا على جناحيها ما لا طاقة لها به . تشعر الحشرة أن هناك قوى نائمة في أعماقها لا تكفي بالموسيقى . الحشرة تكور قبضتها تجاه يد حقيبة الكمان أو الفيولا أو الفلوت . تحب الحشرة أن تحول قواها إلى الاتجاه السلبي ، مع أن الاختيار متاح أمامها . الأم تعرض عليها الاختيارات ، طائفة كبيرة من الحلقات المتدلية من ضرع البقرة - الموسيقى . تضرب بالآلات الوترية ، وآلات النفخ ، والمجلدات الثقيلة للنوتات الموسيقية ، في ظهور الناس ، وفي جبهاتهم الأمامية . في طبقات الشحم التي تبطن أسلحتهم كأنها بارود من المطاط . أحيانا - حسب مزاجها - تتناول بيد الآلة الكامنة في حقيبتها ، ثم تعمل قبضة اليد الأخرى بكل خبث في المعاطف الشتوية للآخرين ، وفي أرديتهم وجواكتهم النمساوية التقليدية . إنها تدنس حرمة الزي الوطني النمساوي بأزراره المصنوعة من قرون الغزال التي تحدها بنظرة منافقة . ثم تستخدم نفسها كسلاح مثل المقاتلين الانتحاريين ، وتوجه ضرباتها بالرقبة النحيفة للآلة الموسيقية ،

مرة بالكمان، وأخرى بالفيولا الأثقل، في مجموعة الناس المتكومين العائدين لتوهم ملطخين من العمل.

عندما يزدحم الترام إلى أقصى حد، حوالي الساعة السادسة، تستطيع إصابة عدد كبير من الناس أثناء أرجحة الآلة. ليس هناك مجال للأرجحة. هي الاستثناء من القاعدة التي تثير اشمئزازها أينما نظرت. الأم تشرح لها، أحيانا بيديها، أنها استثناء من القاعدة، لأنها الطفل الوحيد الذي أنجبته، وعلى الطفل أن يبقى في الطريق المرسوم له. في الترام ترى كل يوم ما لا تود أبدا أن تصبح. إنها تقوم بحرث الطوفان الرمادي ولؤلئك الركاب، بتذكرة أو من غير تذكرة، الذين صعدوا لتوهم إلى الترام أو الذين يستعدون للنزول، الذين لم يحصلوا على شيء من المكان الذي آتوا منه، ولا يتوقعون الحصول على شيء في المكان الذي يقصدونه. لا يتسمون بالأناقة. بعضهم ينزل من الترام قبل أن يجد مكانا يستريح فيه.

إذا أجبرها المرء بدافع من الغضب الشعبي إلى النزول في إحدى المحطات التي تبعد كثيرا عن البيت، فإنها تطيع وتغادر بالفعل العربية، تتجنب تفريغ الغضب المتراكم في قبضتها المكورة، ولكن فقط كي تنتظر الترام التالي الذي يأتي حتما مثلما تعقب الصلاة كلمة "أمين". هذه سلاسل لا تنقطع أبدا. عندئذ تشرع في الهجوم التالي وقد استعادت قواها. تترنح بجهد جهيد والآلات تغطيها، وتشق طريقها بين العائدين من العمل، ثم تنفجر وسطهم مثل شظايا قنبلة. أحيانا تتظاهر بأنها تريد النزول، وتقول: من فضلك، أريد النزول هنا. عندئذ تحصد موافقة الجميع. عليها أن تغادر فوراً وسيلة المواصلات العامة النظيفة هذه! لأنها لم تخصص لأناس مثلها! الركاب الذين دفعوا ثمن التذكرة لا يسمحون لها بذلك على الإطلاق.

إنهم يحدقون في التلميذة ويقولون لأنفسهم: لقد رفعت الموسيقى مبكراً من معنوياتها، إلا أنها في الحقيقة لم ترفع سوى قبضتها. أحيانا يتم توجيه التهمة عن غير وجه حق إلى شاب رمادي الهيئة يحمل أشياء منفرة داخل مخللة متهرئة من تلك التي يستخدمها البحارة، لأن الناس يعتقدون أن أمثاله قادرون على فعل ذلك، لا هي. عليه أن ينزل في الحال، ويذهب إلى من هم على شاكلته، قبل أن يوجه له أحد المرتدين للزبي القومي لظمة قوية على خده.

الحق دائماً لدى ابن الشعب الغاضب الذي دفع ثمن التذكرة بالكامل، لديه الحق لأنه دفع ثلاثة شلنات، ويستطيع أن يثبت شراءه للتذكرة إذا جاء مفتش. بفخر يبرز التذكرة المخططة شاعراً بأن

الترام له وحده . إنه يدخر بذلك أسابيع حارقة معذبة يخشى فيها أن يضبطه مفتش في الترام .  
سيدة تشعر بالألم مثلك تصرخ عاليا : ساقى ! لقد أصيب هذا الجزء المهم لاستمرارها في الحياة ، الذي يستند جزء من وزنها عليه . وسط هذا الزحام الخطير المهدد لحياة الإنسان ، لا يمكن تحديد من هو المذنب . ستار من النيران يغطي الجمع المحتشد ، ستار من الاتهامات واللعنات والاهانات والتأكيدات والشكاوى . الشكاوى تندب حظ الشاكي ، وتنساب من فم يسيل منه الزبد ، إما الاتهامات فإنها تُسكب على رؤوس الآخرين . إنهم يقفون متزاحمين كما في علبة سردين ، إلا أنهم لا يعومون في الزيت ، سيحدث ذلك بعد انتهائهم من العمل .

غاضبة تصطدم بعظام صلبة لرجل . بلطف تتساءل ذات يوم إحدى زميلاتها في المدرسة ، بنت صغيرة تقف على كعبين عالين رائعين تشتعل شرارتهما الأبدية ، وترتدي معطفا جلديا مبطنا بالفرو من أحدث طراز : ماذا تجرّين؟ ما اسم ذلك؟ أعني هذا الصندوق هنا ، وليس رأسك ، هناك في الأعلى . هذه تسمى فيولا ، تجيب إريكا بأدب . وما معنى ذلك ، " فولا "؟ لم أسمع هذه الكلمة الغريبة أبدا من قبل ، يقول فم ملطخ بالأحمر في استهزاء . فتاة تسير حاملة شيئا يسمى " فولا " لا يصلح لشيء معروف . كل فرد عليه أن يتجنبها لأن هذه " الفولا " تحتاج إلى حيز كبير من حولها . إنها تسير بها علانية في الشارع ، ولا أحد يلقي القبض عليها متلبسة .

هؤلاء الذين يتعلقون بصعوبة بمقابض الترام ، وأولئك القلائل سعداء الحظ الذين يحتلون المقاعد ، رؤوس هؤلاء وأولئك تمتد من جذوع متهالكة وتتطلع إلى أعلى بلا جدوى ، باحثة مستطلعة فيما حولها عن المذنب الذي دهس أقدامهم بشيء صلب . لقد داس أحدهم على أطراف أصابع قدمي ، يندفع سيل من الكلمات البذيئة من أحد الأفواه . من هو الجاني؟ المحكمة الفيناوية الأولى للترام ، المشهورة في العالم كله ، تنعقد للنطق بحكم الإدانة ، أو لإصدار تحذير بعدم تكرار الفعلة .

في كل فيلم حربي هناك واحد على الأقل يعلن بمحض إرادته استعدادة لتنفيذ أمر ما ، حتى لو كان سيشارك في مهمة تأخذه إلى الرفيق الأعلى . ولكن هذا الكلب الجبان يختبئ خلف ظهر المواطنين الصابرين . دفعة كاملة من الحرفيين الذين يشبهون الجرذان وضعوا على أكتافهم حقيبة العدة ، وراحوا يتدافعون ويتزاحمون ليخرجوا من العربة . لقد أوشكوا على الوصول إلى سن التقاعد . هؤلاء الناس يسرون بنشاط محطة كاملة على أقدامهم ! عندما يخل كبش وسط كل

الحملان بالنظام في العربة، فإن المرء يحتاج إلى الهواء الطلق، وهو ما يجده في الخارج. منفاخ السخّط الذي به تُعامل الزوجة في المنزل، يحتاج إلى أكسجين نقي، وإلا ربما لن يعمل. شيء لا يمكن تحديد لونه أو شكله يبدأ في الاهتزاز، ينزلق، بينما يصرخ شيء آخر كأن إبراهيم وخزته. رذاذ كثيف من السم الفيناوي يتناثر فوق الرعاع؛ ويصرخ أحدهم في طلب الجلاّد، لأنهم أفسدوا عليه وقت الاسترخاء بعد العمل. إلى هذا الحد يشعرون بالغضب، لأنهم ما زالوا في انتظار الهدوء المسائي الذي كان من المفروض أن يبدأ منذ عشرين دقيقة. أو أن الهدوء قد انقطع فجأة، انقطع مثل الغلاف الملون المطبوع الذي يغلف حياة الضحية - مع إرشادات الاستخدام - وبالتالي لم يعد ممكناً إعادتها إلى الرف. لا يمكن أن تمسك الضحية الآن ببساطة وبدون لفت للأنظار بغلاف جديد سليم، وإلا ستعتبر البائعة ذلك سرقة.

اتبعيني بدون لفت للأنظار! ستصرخ فيها البائعة. لكن الباب الذي يؤدي لمكتب مدير الفرع، أو يبدو أنه يؤدي إليه، هو باب وهمي، وفيما عدا هذا السوير ماركت الجديد تماماً ليس هناك تخفيضات هذا الأسبوع، ليس هناك شيء، أي شيء على الإطلاق، ليس إلا الظلام، والزبون الذي لم يكن أبداً بخيلاً، يهوي في غور بلا قاع. شخص يصيح باللغة الرسمية المعتادة: عليك على الفور مغادرة العربة! من سقف جمجمته ترعرع لحية وعل، فالرجل متنكر في هيئة صياد.

لكنها تنحني في الوقت الملائم، كي تستخدم حيلة جديدة خبيثة. قبل ذلك عليها أن تضع النفايات الضخمة التي تمسك بها، أي آلاتها الموسيقية. الآلات تحيط بها الآن مثل سور. تنحني وكأنها تريد ربط حذاءها، لكنها في الحقيقة تدبر فخاً لجارها في الترام. عرضاً تقرص هذه المرأة، أو تلك التي تشبهها تماماً، في سمانة ساقها قرصة قوية. بكل تأكيد ستصاب هذه الأرملة بكدمات زرقاء. ستندفع هذه المشوهة واقفة - شعاع شفاف مضيء براق، ينبثق من نافورة في الليل، يُسمح له أخيراً بالوقوف في بؤرة الاهتمام - ثم تذكر باختصار ودقة مكانة عائلتها، وتهدد باستخدام اتصالاتها (لا سيما عن طريق أقارب زوجها المتوفى) لمعاقبة معذبتها. ثم تطلب استدعاء البوليس! لكن الشرطة لا تأتي، إذ ليس من الممكن أن تهتم بكل شيء.

توجه العازفة نظرة بريئة إلى شخص. تتصرف إريكا وكأنها مستسلمة للقوى التي تبدو غامضة، المنبعثة من الرومانتيكية الموسيقية، الرهيفة المشاعر والتمامية، ليس لديها وقت للتفكير

في أي شيء آخر. إثر ذلك يتحدث الشعب بصوت كأنه واحد: لم تكن البنت التي تحمل هذا المدفع الرشاش هي السبب. وكما يحدث كثيرا، فإن الشعب يخطئ هذه المرة أيضا. أحيانا يستغرق شخص في التفكير، والنتيجة هي أنه يشير إلى الجانية الحقيقية: أنت الفاعلة! يوجهون إليها الأسئلة تحت الضوء الساطع الهابط من شمس التفهم: ما قولها في ذلك؟ لكنها لا تتكلم. الحشو الذي ركبه مدربوها في سقف الحلق يمنعها من أن تقوم - عن غير وعي - باتهام نفسها. لا تدافع عن نفسها.

فريق من الناس يهاجم الفريق الآخر:

كيف تتهمون خرساء صماء؟ صوت العقل يدعي أن الذي يعزف على الكمان لا يمكن أن يكون أخرس وأصم. ربما هي فقط خرساء، وتحمل الكمان لشخص آخر. لا يتفق الناس في الرأي، ولذلك يتخلون عن عزمهم. لقد بدأوا يحلمون بالحانة التي سيقضون فيها نهاية الأسبوع. شبح الحانة لا يفارق رؤوسهم، ويدمر عدة كيلوغرامات من الأفكار. الخمر ستتكفل بالباقي. بلد مدمني الخمر. مدينة الموسيقى. هذه الفتاة تتطلع إلى عوالم رحبة من الأحاسيس، أما من يوجه إليها التهمة فيتطلع في أحسن الأحوال إلى قاع كأس البيرة، ولذا يلوذ بالصمت خائفا من نظرتها.

التراحم يحط من كرامتها، لأن الرعاع فقط هم الذين يتزاحمون، عازفة الكمان أو الفيولا لا تتزاحم. من أجل خاطر هذه المتع الصغيرة لا يهتمها إن وصلت متأخرة إلى البيت، حيث تنتظرها الأم وفي يدها الساعة، ثم توبخها. تتحمل مثل هذه المشاق، رغم أنها قضت العصر كله تعزف وتفكر، تلعب على الكمان وتسخر من الأسوأ منها. إنها تريد أن تدخل الرعب والفرع في قلوب الناس. برامج الحفلات الفيلهارمونية تفيض بمثل هذه المشاعر والأحاسيس.

إن زائر الحفلات الفيلهارمونية ينطلق من الكلمات التمهيدية في البرنامج، ليشرح لزائر آخر، كيف أن أعماقه تزلزل من الألم والأسى واللوعة المنبعثة من هذه الموسيقى. لقد قرأ لتوه ذلك، أو ما يشبه ذلك. لوعة بيتهوفن، لوعة موتسارت، لوعة شومان، لوعة بروكنر، لوعة فاغنر. هذه الآلام هي الآن ملكه وحده، وهو في الوقت ذاته مالك مصنع بوشل للأحذية، أو مالك شركة كوتسلر للتجارة في مواد البناء بالجملة.

بيتهوفن يحرك ذراع الخشبية والخوف في نفوسهم، وهم يجعلون العاملين لديهم يقفزون في

خشية . السيدة الدكتوراة فلانة عقدت صداقة وثيقة مع الألم منذ فترة طويلة . منذ عشر سنوات وهي تحاول سبر أغوار القداس الجنائزي لموتسارت وكشف آخر أسراره . حتى الآن لم تتقدم خطوة واحدة في هذا الاتجاه ، لأن هذا العمل لا يُسبر غوره . لا يمكننا فهمه ! السيدة الدكتوراة تقول إنه أكثر الأعمال عبقرية في تاريخ الموسيقى ، هذا شيء مؤكد بالنسبة لها ولقلائل آخرين .

السيدة الدكتوراة هي إحدى المصطفيات اللائي يعرفن أن هناك أشياء لا يمكن سبر غورها مهما حاول المرء . ما الذي يمكن تفسيره بعد ذلك ؟ لا يمكن أن نفسر كيفية نشأة مثل هذه الأشياء . الشيء نفسه ينطبق على بعض القصائد التي يحسن بالمرء ألا يقوم بشرحها . القداس الجنائزي كان تكليفا لموتسارت ، دفع ثمنه رجل غامض مجهول يرتدي معطفا أسود مما يرتديه الحوذية . السيدة الدكتوراة والآخرين الذين رأوا ذلك الفيلم عن موتسارت يعرفون : لقد كان الموت نفسه ! بهذه الفكرة صنعت لنفسها ثقباً في القشرة التي تحيط بأحد أعظم العظماء ، واستطاعت أن تحشر نفسها وتنفذ إليه . في حالات نادرة ينمو المرء ملتصقا بأحد العظماء .

جماهير بائسة من البشر تحيط بها دون انقطاع . على الدوام ينفذ شخص ما إلى منطقة حواسها . إن الغوغاء لا يغتصبون الفن فحسب ، وبدون أي وجه حق ، لا ، إنهم يتسللون إلى داخل الفنان أيضا . إنهم يقيمون داخل الفنان ، ثم يحفرون على الفور عدة نوافذ ليطلوا منها على العالم الخارجي ، وليطل منها العالم عليهم . بأصابعه المتعرقّة يكتب هذا الكلوتس كوتسلر شيئا على الآلة الكاتبة ينتمي إليها وحدها . إنهم يدندنون معها دون دعوة أو سؤال . إنهم يتحسسون بإبهام مندى موضوعا ما ، ويبحثون عن المواضيع المكملّة له ، لكنهم لا يجدونها ، ولذا يكتفون - وهم يهزون رؤوسهم - بالعثور على الموضوع الرئيسي ، ثم - وهم يهزون ذيلهم فرحاً لتعرفهم عليه - يكررونه المرة تلو الأخرى . إن جاذبية الفن تكمن بالنسبة للأغلبية في التعرف مرة أخرى على شيء اعتقدوا أنهم يعرفونه .

فيض من المشاعر تغمر السيد صاحب المجزرة . لا يستطيع مقاومة ذلك ، مع أنه معتاد على حرفة دموية . يتصلب دهشةً . إنه لا يزرع ، لا يحصد ، لا يسمع جيدا ، ولكن الناس يستطيعون التفرج عليه في حفلة موسيقية عامة ، وبجانبه الأجزاء الأثوية من عائلته التي ذهبت معه . تصطدم إريكا بالكعب الأيمن لامرأة مسنة . تستطيع أن تنسب كل عبارة متأثرة إلى المكان المناسب لها . هي وحدها تستطيع أن تزحزح كل كلمة تسمعها إلى المكان الصحيح المناسب .



تستمع إلى مأمأة تلك الحملان الجاهلة وتغطيها باحتقارها الذي تعاقب به الحملان . جسدها ليس إلا ثلاجة كبيرة تحفظ الفن في حالة جيدة .

حاسة النظافة لديها مرهفة للغاية . إن الأبدان القذرة تحاصرها بغابة صمغية . ليست القادرة البدينة وحدها ، الوساخة في أكثر أشكالها غلظة ، تلك التي تنبعث من الآباط والعانات ، عفونة البول الخفيفة التي تفوح من العجوز ، النيكوتين الذي ينساب من شبكة العروق والمسام في جسم الكهل ، أكداس أرخص أنواع الطعام التي لا يمكن حصرها التي يتصاعد بخارها من المعدة ؛ ليست فقط التناث الشمعية المنبعثة من فروة الرأس المتكلسة ، من قشرة الجرح ، ولا العفونة الواهنة - ولكن النفاذة بالنسبة للمتمرس - التي تفوح من جزيئات الغائط تحت أطافر الأصابع ؛ مخلفات احتراق المواد الغذائية التي لا لون لها ، تلك الملذات الرمادية الأدمية ، إذا كان للمرء أن يطلق عليها ملذات ، التي يتناولها أولئك ، كل ذلك يعذب حواس الشم لديها ، مسام التذوق لديها - كلا ، أسوأ شيء يعذبها هو كيف يتغلغلون في الآخر ، كيف يسكنون داخله ، كيف يستحذون عليه بلا خجل . بل إن هناك من يتغلغل في أفكار الآخر ، إلى أعماق أعماقه .

من أجل ذلك سيعاقبون . ستعاقبهم . ومع ذلك لا يمكنها أبداً أن تتخلص منهم . إنها تتمزق بسببهم ، تنفضهم عنها كما يفعل الكلب مع فريسته . ومع ذلك ينبشون في قلبها ، وينكأون أعماقها دون أن يطلب منهم أحد ذلك ، إنهم يتفحصون قرارة نفسها ، ويجرؤون على الإدعاء أن فيبر أو شونبرج لا يعجبهم .

الأم ، دون سابق إنذار ، تقوم بفك المسامير القلاووظ في غطاء رأسها ، ثم تدخل يدها بكل ثقة ، وتنش ، وتفتش ، وتنكأ . إنها تخلط كل شيء في فوضى ، ولا تعيد أي شيء إلى مكانه المعهود . بعد فحص قصير تُخرج عدة أشياء ، تتأملها تحت العدسة المكبرة ، ثم ترميها . هناك أشياء أخرى ترتبها الأم ، وتنظفها بالفرشاة والإسفنجة والخرقة . ثم يُجفف كل شيء ، وتُرَكَّب المسامير مرة أخرى . كما تفعل بسكين المفرمة .

هذه العجوز سعدت إلى الترام دون أن تمر على المحصل . تعتقد أن بإمكانها أن تبقي صعودها إلى عربة الترام سراً . لقد هبطت في الحقيقة من كل شيء في الحياة ، وهي تحسد ذلك أيضاً . لم يعد الأمر يستحق أن تدفع ثمن التذكرة . التذكرة إلى الأبدية تحتفظ بها منذ أمد طويل في شنطة يدها . لا بد أن تكون تلك التذكرة صالحة حتى في الترام .

الآن تسألها سيدة عن عنوان ما، لكنها لا تجيب. لا تجيب رغم أنها تعرف الطريق جيدا. لا تستسلم السيدة وتظل تبحث في العربة كلها، طاردة الناس من مقاعدهم علّها تجد تحت مقاعدهم الشارع الذي تبحث عنه. إنها متجولة عبوس على دروب الغابة، اعتادت بمساعدة عصا رقيقة أن تخز جحور النمل لتخرجها منها. إنها تتحدى الحشرات، وتخرجها عن طورها، مما يجعلها تشرع في رش سائلها الحمضي.

إنها واحدة من الذين يقلبون كل حجر كي يتأكدوا من عدم وجود حية تحته. إنها تفحص كل بقعة جرداء في الغابة، حتى لو كانت صغيرة للغاية، علّها تجد هناك [فطر] عيش الغراب أو توتا برياً. هي واحدة من أولئك. لا بد أن يعترضوا كل ما في العمل الفني، ويشرحوا كل شيء بصوت عال. في المنتزه ينظفون الدكك بمناديلهم الورقية قبل أن يجلسوا. في المطاعم مسحون الشوك والساكين بمنديل السفرة حتى تلمع. بمشط رفيع الأسنان يمرون على البدلة التي يرتديها أحد أقاربهم المقربين لإبعاد الشعر والرسائل والبقع الدهنية.

هذه السيدة تفعل الآن وتصيح، إذ أن لا أحد يريد أن يرشدها إلى الطريق. إنها تدعي أن لا أحد يريد أن يجيبها على سؤالها. هذه السيدة تنوب عن الأغلبية الجاهلة التي تملك شيئاً واحداً بوفرة عظيمة: الروح القتالية. الاستعداد للشجار مع كل شخص، إذا تطلب الأمر. إريكا تنزل من الترام تحديداً عند الشارع الذي كانت السيدة تسأل عنه، مُلقية نظرة فاحصة متهكمة تجاه السائلة.

تدرك الجاموسة ما حدث، وتكاد تأكل نفسها غيظاً. بعد قليل ستستعيد هذا الفصل من حياتها عند صديقة، مع طبق من اللحم البقري والفاصوليا، وبذلك تطيل الحياة بفترة الحكيم القصيرة هذه، لكن الزمن ينقضي أثناء الحكيم ولا يمكن إيقافه. وبذلك يسلب الزمن من السيدة حيزاً مخصصاً لخبراتها الجديدة.

إريكا تلتفت مرات عدة إلى السيدة التائهة بلا أمل في العثور على الطريق، قبل أن تبدأ سيرها على طريقها المؤلف الذي يقودها إلى البيت المؤلف. أثناء ذلك تحدج السيدة بنظرة شامته، ناسية أنها بعد دقائق ستحترق وتتحول إلى كومة رماد تحت لهيب نار الأم، لأنها عادت إلى المنزل متأخرة. عندئذ لن يعزيها ينبوع الفن كله، رغم أنهم يقولون عن الفن أشياء كثيرة، ويدعون قدرته بصورة خاصة على تقديم العزاء. في بعض الأحيان لا تبدأ المعاناة إلا بالفن.

(الفصلان الأول والثاني من رواية "عازفة البيانو") ترجمة: سمير جريس